وصف قاهرة القرن العاشر الهجرى
السادس عشر الميلادى
فى كتاب الرحالة مصطفى على[1]
حالات القاهرة من العادات الظاهرة

مَثَّلَ الفتح العثمانى لمصر مرحلة تحول فى تاريخها وفى شكل الحياة ومظاهرها السياسية والاقتصادية والاجتماعية، ومِمَّا يُؤسف له أن مظاهر الحياة الاجتماعية وما أصابها من تغيُّر طبقاً للمتغيرات السياسية والعسكرية لم تكد تلقى أى اهتمام من مؤرخى تلك الفترة، وخاصة تلك الفترة المبكرة من العصر العثمانى فى مصر، ولولا ماكتبه الرحالة الأوربيون مثل كارستين نيبور[2] وغيره لظلت الفترة التى تسبق الحملة الفرنسية غير واضحة المعالم، وليس ذلك لانعدام المصادر التاريخية المعاصرة، فهى متعددة، فقد

---

(١) مصطفى على (٩٤٨ - ١٠٠٩هـ - ١٥٤١ - ١٦٠٠م) - رحالة وشاعر ومؤرخ تركى معروف، كتب فى موضوعات متعددة، وهو أكثر شهرة باسمه المختصر الذى يضعه على مؤلفاته وهو «على» . . وقد وضع كتابه عن رحلته إلى مصر، التى زارها مرتين: الأولى فى مطلع شبابه عام ٩٧٦هـ - ١٥٦٨م، وكانت تزيارة سريعة حيث كان يعمل كاتباً للسر عند (لالا مصطفى باشا) حيث صحبه معه إلى مصر وعاد مع سيده إلى استانبول.

أما الزيارة الثانية فكانت بعد ٢٧ عاماً، فقضى فى القاهرة قرابة العامين، إذ دخلها فى المحرم عام ١٠٠٨هـ - يوليو أغسطس ١٥٩٩م. وكتب خلالها هذا الكتاب باللغة التركية فى ٩٧ صفحة من القطع المتوسط. وقد حققه وترجمه من التركية إلى الإنجليزية الباحث التركى (أندريا تيتاز) بعنوان:

- Andreas Tietze: MUSTAFÁ ALI'S Deseription of Cairo of 1589 - Text. Translitration, Translation nots. Rlagder ôsterreischen Akademie Wissenschaften Wien 1975.

وقد قمتُ بترجمة النص الإنجليزى إلى العربية، وأضفت إليه التعليقات والحواشى، لما لهذا الكتاب من أهمية خاصة بالنسبة للتاريخ الاجتماعى لتلك الفترة. وهو يُعَدُّ للنشر إن شاء الله تعالى.

(٢) كارستين نيبور - رحلة إلى مصر ١٧٦١ - ١٧٦٢م - ترجمة د. مصطفى ماهر جـ١. المطبعة العالمية - القاهرة ١٩٧٧م.

عاصر ابن إياس السنوات الأولى من العصر العثمانى، كما أرخ لتلك الفترة ابن أبى السرور البكرى، والبرلسى السعدى، ويوسف الملوانى الشهير بابن الوكيل، وأحمد شلبى عبد الغنى، والجبرتى، وغيرهم.

وجدير بالذكر أنه قد ظهرت فى الفترة الأخيرة عدد كبير من المخطوطات المحققة التى تتحدث عن مصر فى عصر الدولة العثمانية، وهى تكاد تغطيها. ولكنها أكثر تناولاً للجوانب العسكرية، وصراعات البيوت المملوكية، والولاة العثمانيين، بدون إهتمام بالتقاليد والحياة الاجتماعية، أو تسجيل لمظاهرها ومتغيراتها[١].

ويوضح لنا ذلك مدى أهمية ماكتبه مصطفى على عن رحلته إلى القاهرة وسجل فيها ملاحظاته على الحياة الاجتماعية بمدينة القاهرة، وتسجيله للمتغيرات التى واكتب الفتح العثمانى لمصر على مدى الربع الأخير للقرن العاشر الهجرى وبداية القرن الحادى عشر، وهى الفترة المحصورة بين رحلته الأولى والثانية إلى القاهرة.

ويتميز ماكتبه الرحالة مصطفى على من وصف للقاهرة بالدقة والموضوعية وتفيض كتابته بالحياة والصدق، ونحس بأنه يضع يده على نبض الحياة، وأنه يعيش الجو الحقيقى لمصر وللعصر، وقد تيسر له التغلغل فى الحياة العامة فى مصر، بالإضافة إلى اتصاله بالحكام ورجال الدولة بحكم طبقته، مِمَّا ميزه عن المصادر الأوربية التى يجب أن ننظر إلى ماجاء بها بعين الحذر، إذ أن الأوضاع العامة فى مصر ـ وخاصة قبل الحملة الفرنسية ـ كانت تحول دون تغلغلهم فى الحياة المصرية ودراستها دراسة وافية[٢].

ومن أهم ما يلفت الانتباه فى وصف مصطفى على لعادات القاهرة هو قدْرته على رصد التغيرُ الذى أصاب المجتمع المصرى على مدى قرابة الأربعين عاماً، فقد سجل الكثير من المتغيرات، ولا يفتأ يعقد المقارنات بين ما كان عند مجيئة فى الرحلة الأولى وما صارت إليه الأحوال فى رحلته الثانية للقاهرة، وهو ينص على ذلك صراحة، حيث

(١) راجع: أحمد شلبى عبد الغنى الحنفى ـ أوضح الإشارات فيمن تولى مصر القاهرة من الوزراء والباشات ـ تحقيق ـ د. عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم ص ٦، مكتبه الخانجى ـ القاهرة ١٩٧٨م.

وأحمد الدمرداش كتخذا عزبان ـ مخطوطة الدرة المصانه فى أخبار الكنانة تحقيق د. دانيال كريسيليوس و د. عبد الوهاب بكر.. دار الزهراء القاهرة ١٩٩٢م.

(٢) توكيل هانسن، من كوبنهاجن إلى صنعاء، ترجمة محمد أحمد الرعدى ص ١٣٥ ـ ١٥٨، مطبعة النجوى ـ بيروت ١٩٦٩م.

يقول: «إن هناك عادات مفجعة شاهدتها بنفسى عندما زرتُ القاهرة عام ١٠٠٨هـ - ١٥٩٩م. ولم تكن هذه المساوئ قائمة وقت زيارتنا السابقة لمصر، ويبدو أن تلك العادات السيئة قد ابتدعها فى أول الأمر بعض السفلة من الجند السباهية، وسرعان ما تحولت إلى عادة شاعت بين الطبقات الدنيا»[١].

وهو يؤكد أن الجود والكرم قد تناقصا بشكل ملحوظ لدى عليه القوم فى القاهرة ما بين زيارته الأولى والثانية، وحل محلهما الجشع، وتزايدت الرشوة فهو يقول: «تميز أعيان القاهرة فى الزمن السابق بالشهامة والكرم الحاتمى عندما جئت إلى مصر فى رحلتى السابقة.... أما فى هذه الأيام - أى عندما حضر إلى القاهرة فى رحلته الثانية - فإنه عندما يقصد أحد متوسطى الحال زيارة واحد من عليه القوم فيجب أن يقدم إليه خمسة أو عشرة أقماع من السكر على الأقل، وقطعتين من ثياب فارسكور ذات الألوان المتعددة أو من الموسلين، أى بهدية لاتقل عن عشرين أو ثلاثين قطعة ذهبية، حتى يمكن أن يساله التوسط لقضاء حاجته، فقد تولى المناصب العليا الوصوليون ومحدثو النعمة[٢].

ثم يسجل التدهور الذى أصاب أحوال الجند ومظهرهم فهم لا يهتمون بارتداء الملابس الداخلية، ولا القمصان، بل إن أحوال الجاويشية فى مصر قد تدهورت، فهو يقول: «عندما قمت بزيارتى الأولى لمصر كان بها حوالى ٣٠٠ من الجاويشية ذوى المظهر المحترم، يرتدى أغلبهم سراويل من القطيفة، ويملك كل منهم قدرًا من المال، على أنى فى زيارتى الحالية وجدت جاويشية الديوان فى حالة يرثى لها، فهم أشبه باللصوص فى مظهرهم، يرتدون القفاطين القديمة، ولاتجد منهم من يلبس السروايل الفضفاضة والقطيفة الزاهية الألوان[٣].

رؤيا مصطفى على للتقاليد الاجتماعية القاهرية:

تميز وصف مصطفى على للحياة القاهرية وتقاليدها الاجتماعية بالصدق والموضوعية والفهم العميق، فهو يضع يده على نبض الحياة، ويلمس حقائقها. وهو يسجل بصدق وموضوعية توافر أنواع الأطعمة، ورخص سعر الطيور، كالأوز والدجاج وصغار الحمام، مقارنة بأسعارها فى تركيا[٤].

---

(١) Andreas Tietze: op cit p. 40

(٢) Ibid., p. 46.

(٣) Ibid., p. 49 .

(٤) Ibid., p. 32.

كل يسجل تردد أعداد غفيرة من المصريين عقب صلاة الجمعة لزيارة قبور الأولياء، مثل ضريح الإمام الشافعى، وضريح الإمام الليث، والسيدة نفيسة رضى الله عنها[١].

ثم يعرض بعد ذلك لتقاليد سكان القاهرة واحتفالهم بتوديع موكب الحج واستقبال عودته، كما يسجل اهتمامهم بتبادل التهانى فى بداية كل شهر، وتبادلهم للتحية الحارة صباحاً ومساء[٢].

ونراه يشيد بالروح السمحة والمرحة لأهل القاهرة، وكثرة احتفالاتهم بالمناسبات المتعددة، فبالإضافة إلى العيدين يحتفلون بوفاء النيل وأعياداً أخرى كثيرة لا توجد فى بلاد الروم»[٣].

ويعرض لأنواع الأزياء التى يرتديها المصريون، ويسجل ملاحظة مهمة، وهى أنه كان مميزاً لطبقات المجتمع، وأن لكل طبقة مكونات الزى الخاص بها، وهى ملحوظة زكية أكدها الرَّحَّالة الأجانب، كما أكدتها دراسات الحملة الفرنسية فى وصف مصر، وكذلك الدراسات الحديثة المتخصصة[٤].

فيتحدث عن ارتداء نساء الطبقة العليا من الروميات وعليه القوم للأُزُر البيضاء، والخمار الأسود. وارتداء النساء المصريات للحبرات السوداء على رءُوسهن، ومظهر ملابسهن البسيط، فيبدون فى الشارع وكأنهن بملابس المنزل. وتتميز الفتيات اللائى لم يتزوجن بتغطية وجوههن ببراقع حمراء من الحرير[٥]. أما الفلاحون فهم يلبسون خليطاً غير متناسق من قطع الملابس والطواقى، وهو يشير إلى أن أطفالهم غالباً عرايا تماماً، إلاَّ من خرقة صغيرة لستر عوراتهم[٦]. وهذه ملاحظة أكدها علماء الحملة الفرنسية وكذلك نيبورو ادورد لين فيما بعد[٧].

(١) Andreas Tietze: op cit., p. 33.

(٢) Ibid., p. 34.

(٣) Ibid., p. 33, 35

(٤) الحملة الفرنسية، كتاب وصف مصر، ترجمة زهير الشايب ـ جـ١، ص ١٠٥ ـ ١٠٩. (نشر مكتبة مدبولى القاهرة).

Von Hammer, Histoire de l'simpire ottoman - VoLL XVII P. 40 Paris, 1835.

آمال حامد المصرى ـ أزياء النساء فى مصر من الفتح العثمانى حتى عصر محمد على رسالة ماجستير مخطوطة ـ جامعة القاهرة ـ كلية الآثار ١٩٨٨ ص ٥٨ ـ ١٠٩.

(٥) Tietze ,op. cit, p. 40.

(٦) Ibid., p.44.

(٧) الحملة الفرنسية المرجع السابق جـ١ ص ١٠١، كتالوج اللوحات لوحة ٨، ١٥ نيبور ـ المرجع السابق، جـ١، ص ٢٩٦ ـ وإدورد وليم لين ـ المصريون المحدثون، شمائلهم وعاداتهم ـ ترجمة عدلى طاهر نور ص ٤٥ ـ ٤٨، الطبعة الثانية القاهرة ١٩٧٥.

ويقارن مصطفى على الروميات (التركيات) وبين القاهريات، ويسجل أن القاهريات أقل مهارة، فهن لا يطهين الطعام فى المنازل، وليس لهن اهتمام بأعمال الحياكة والتطريز مما يرهق الأزواج[١].

كما لاحظ أن نساء القاهرة يركبن حمير المكارية فى تنقلاتهن، وحتى فى حفلات الزواج تركب العروس حمارًا، ومن حولها أقاربها، لتُزَفَّ إلى منزل الزوجية، وهو ينعى ذلك بشدة، كما ينعى أيضاً تردد النساء على القرافة فى أيام الجمع وما يحدث من اختلاطهن بالرجال من منكرات[٢].

ويعرض بعد ذلك لما رآه من تقاليد جنائزية، فيعيب وجود النائحات والنادبات المحترفات. . كما يصف ما يفرق على الفقراء من رحمة فى جنازات الميسورين بقوله: «تجد عجلين يتقدمان الجنازة ومن وراءهما الصوانى المغطاة محملة بالخبز والتمر، وبعد أن يوارى الجثمان فى المقبره تنحر الذبائح وتوزع على الفقراء مع الخبز والملح والتمر»[٣].

وبرغم تميز ملاحظاته بالدقة والموضوعية فإننا نلمح عنجهية عنصرية تطفو أحيانًا فتظهر فى تحامله على العرب والمصريين واتهامهم بقبح الأشكال والصور، وأنك لاتجد منهم حُسن الصورة إلا من قد اختلطت به الدماء التركية[٤].

وهى نظرة عنصرية تعتقد سيادة العنصر التركى، وتتعالى على أبناء الأمم الأخرى من الشعوب التى خضعت لهم، وكانوا يطلقون عليهم اسم (تعت) (tat).

ويعرض لعادات المصريين فى حفلات الزواج، وكيف أن العروس فى ليلة الزفاف تستعرض أثوابها واحدًا بعد الآخر، ثم تستعرض نفسها فى ملابس الرجال، وتحاول أن تهاجم العريس لإخضاعه، فيهرع أهله لإنقاذه، ولا تجرى مثل هذه التقاليد عند علية القوم[٥].

ثم يقدم لنا صورة شائقة ودقيقة لم يُسبق إليها لبيوت القهوة التى عمت وانتشرت فى القاهرة، وهى تجمع المتناقضات، حيث يتردد عليها أهل التقى والصلاح لاحتساء أقداح

(١) Tietze, op cit p. 40.
(٢) Ibid., p. 41.
(٣) Ibid., p. 44.
(٤) Ibid., p. 40.
(٥) Ibid., p. 47.

القهوة فى الصباح الباكر قبل ارتيادهم للمساجد، كما أنها فى نفس الوقت ملجأ للمتنطعين والبطالين من قدامى الجند ذوى الهيئة الرثة، ومدمنى المخدرات، حيث يستلقون على الحُصر طوال النهار يجترون بطولاتهم الزائفة. . ويضيف: «إن العقارب تعبث فى أركانها، وقد تلوثت جدرانها. . . وينتشر بها عازفو الموسيقى من المعتوهين الذين يعزفون الموسيقى الصاخبة، فتتحول تلك المغارة إلى ما يشبه العرس. . ونادرًا ما تجد بيتًا للقهوة نظيفًا يصلح لأن يرتاده المتعلمون والصلحاء»[١].

أحوال الجند فى القاهرة:

ومما يتفرد به مصطفى على ما سجله عن أحوال الأجناد فى القاهرة بمعرفة ودراية تامة، فقد عجت مدينة القاهرة بأخلاط من الجند من كل صنف ولون، ونراه يحرص لطريقة جمع الجند فى الحملات لإرسالهم إلى اليمن أو غيرها فيقول: «عند صدور أمر السلطان إلى الوالى بذلك، يصدر الوالى (البكلربك) أمره بتعيين آغا، وكتخذا، ويكلفهما بجمع الجند، فيعلن عن ذلك، ويجلس الأغا فى مسجد السلطان حسن ومعه كيسان من الذهب لصرف نفقة الجند، فتهرع أعداد غفيرة من الشباب التعساء الذين يبيعون أرواحهم مقابل خمس قطع ذهبية بدون أن يسألوا عن طبيعة المهمة التى سوف يُدْفَعُون إليها».

ويمضى فى شرح طريقة تعبئة الجند بدقائقها: «فما إن يسجل الشاب اسمه حتى يُعْطَى واحدة من ريش الديكة ليضعها على رأسه، دلاله على أنه قد وقع عليه الاختيار، وصار فى خدمة السلطان. وهم لايدركون أن الموت لهم بالمرصاد فى جبال اليمن وأوديتها، بدون أن يجدوا لهم كفنًا»[٢]. ونراه يسجل ملحوظة مهمة، وهى أن معظم هؤلاء من مماليك التجار والأسر الكريمة[٣].

---

(١) Tietze, op.cit., p. 38.

يقدر إدوردلين عدد بيوت القهرة فى القاهرة فى أيامه بما يزيد على ألف بيت للقهوة، يرتادها متعاطو الحشيش والأفيون من الطبقات الدنيا. لين. المرجع السابق ص ٢٩٠ - ٢٩٢.

(٢) Tietze, op. cit., p. 52.

(٣) يؤكد الرحالة نيبور ملحوظة مصطفى على من أن كثيراً من الجند الذين يدخلون فى الجندية من مماليك الأسر المصرية الكبيرة وكبار التجار، فيقول: «إنه قد تعرف إلى تاجر كبير ثرى لم يكن يقوم على خدمته سوى خادم واحد، ولم يكن يركب سوى الحمار إذا خرج لقضاء أعماله، ولكنه دفع ببعض مماليكه إلى حيث أصبحوا ضباطاً كباراً فى القوات المصرية التى تظهر فى شوارع المدينة فى أبهة وعظمة، علمًا منه بأنهم على استعداد فى كل وقت لحماية صاحب الفضل عليهم» ـ (نيبور ـ المرجع السابق ص ٢٤٧).

ويمضى فى استعراض الحالة المزرية لكثير من الجند فى مصر، وإلى تدنّى أخلاقهم، ومظهرهم المتواضع، بالإضافة إلى سوء أخلاقهم وانحلالهم، وممارستهم العلنية للشذوذ الجنسى والفجور، وتبادلهم للسباب والألفاظ السوقية، ومعاركهم وصراعاتهم الدائمة التى لا تعدو أن تكون خلافًا على غلام أو جواد[١].

وهذا ما أكده المؤرخ المصرى ابن أبى السرور البكرى فى كشف الكربة وغيره من المعاصرين[٢].

كما كان هؤلاء الجند يتسكعون فى شوارع المدينة مخمورين على ظهور جيادهم طوال يومهم، يثيرون الاضطراب، ويتنطعون، ويتزاحمون فى الأسواق، وحتى إذا خرجوا لمرافقه موكب الحج لحماية الحجاج فإنهم لايكفون عن الصراع لأتفه الأسباب، والاشتباك مع جند دمشق، وأتباع شريف مكة[٣].

وهو يُقَدِّر عدد الجند المنوط بهم حماية القاهرة من هجمات الأعراب بعشرة آلاف جندى، ويتهمهم بالانحلال، والبعد عن الإنضباط العسكرى، ويرجع ذلك إلى أن كل الرتب العسكرية يشغلها الأجانب من غير (الروم) الترك[٤].

وقد أدى هذا إلّى اجتراء الأعراب ومهاجمتهم الدائمة لأطراف المدينة والقرى، وموكب الحج أحياناً. ويبدو أن هذه الحالة لم تتغير، فقد أشار إليها نيبور بعد ذلك[٥].

---

(١) Tietze, op. cit., p.52

(٢) يقوم البكرى عن مسلك هؤلاء الجند: إنهم «كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه ولا يأتمرون بأمر ولاتهم، ولا يمتثلوه، وصارلهم أسمطة وأطعمة غالية المقدار تُحمل إلى خيامهم آناء الليل وأطراف النهار، وتهديد الكشاف إن قصروا عن ذلك، بل ويسلكون بهم أسوأ المسالك، وصار المسلمون معهم فى أمره مريج، ليس لهم منه خلاص، بل أصبحوا فى غاية التعويج، صار أرذل الجند وأقلهم مقلدًا بالسيوف المسقطة، والسروج بالذهب المنقطة، والخيول المسومة، والمرد الجميلة المزينة بأنواع الزينه المكملة، راكبين خلفهم أجود الخيول، فى لهو وفرح لايزول، وإن وجدوا ولدًا مقبول الصورة أخذوه من والده بالسيف وقد حصل منهم غاية الحيف».
- محمد بن أبي السرور البكري الصديقي - كشف الكربة في رفع الطلبة - تحقيق د. عبد الرحيم عبد الرحمن - المجلة التاريخية المصرية مجلد ٢٣ - ص ٣١١ عام ١٩٧٦م.
- أحمد شلبي عبد الغني الحنفي - أوضح الإشارات فيمن تولي مصر القاهرة من الوزراء والباشات - الملقب بالتاريخ العيني - تحقيق د. عبد الرحيم عبد الرحمن ص ١٣، ١٤ المقدمة - مكتبة الخانجي - القاهرة ١٩٨٧م.

(٣) Tietze, op. cit ., pp.53 : 56.

(٤) Ibid., p. 55.

(٥) نيبور المرجع السابق ص ٢١٧.

فساد الجهاز الإدارى فى مصر:

يسجل مصطفى على اختلال الأمور فى ديوان مصر عَمّاً كانت عليه فى زيارته الأولى، ويرجع ذلك إلى سوء اختيار كبار موظفى الدولة، مثل الدفتردار، ومستحفظان قلعة القاهرة، ويشير إلى أن هؤلاء كانوا يعينون فى بدايه الفتح من رجال البلاط من نفس الدرجة، كما كانت وظيفة مستحفظان وقفًا على الرجال الذين أمضوا فترة طويلة فى الخدمة العسكرية من الجاشنكيرية، وشغلوا وظيفة قول أغاسى فى مصر، ثم انحطت الأمور، فتولى هذه الوظائف الأفّاقون من المرتشين، وغير ذوى الخبرة، والذين لم يسبق لهم خدمة أحد من العظماء، والذين يُطلق عليهم (مفلاجية) احتقاراً لشأنهم(١).

ويدلل على ذلك بأن يقدم عرضًا مفصلاً للبكوات الذين كانوا بمصر عند زيارته لها، فيقدر عددهم بثلاثين بك تقريبًا، ليس من بينهم من نشأ فى القصور السلطانية سوى ثلاثة من البوسنة، أولهم (بيرى بك)، والثانى (سنان بك الخصى)، وآخرهم (حسين بك المجنون). ثم يعرض بعد ذلك فى معرفة دقيقة بأسرار هذه الفئة لتفاصيل الأصول المنحطة لحوالى عشرين من البكوات أصحاب السنجقيات فى مصر، والذين حصلوا على مناصبهم بالرشوة والوسائل القذرة، ومنهم تارنجى بك، وبسطرمجى بك، وسنان بك جوشك، الذى عُرِفَ ـ لشدة ولَعِهِ بالصبيان المرد ـ بقائد جيش الغلمان، وقد حصل على وظيفة بالرشاوى التى حصل عليها من اليمن وغيرهم(٢).

وفى حديثه عن جشع الكشاف وتسلطهم على الفلاحين يقول: «إن من أشد الأمور غرابة تلك النزعة الاستبدادية التى يتسلط بها كشاف الأقاليم على أهل البلاد التعساء، فقد كان فى مقدور أحد الأوغاد من الجند، لايملك قوت يومه، أن يحصل على التزام إحدى الولايات مقابل أن يدفع ما عليها من اموال، وبذلك يصبح كاشفًا، فتراه يبادر إلى بيع وظائف الخادم والطاهى والحاجب وأمثالها لمن يدفع رشوة أكبر، ثم يطلق يده ويد جنده فى ظلم الناس، ويصبح هذا الجندى المفلس حاكمًا مطلق السلطة، من حقه أن يشنق من يريد بين يوم وليلة(٣).

---

(١) Tietze, op. cit., p .56.

(٢) Ibid., p. 57.

(٣) Ibid., p. 56.

ويسجل مصطفى على فساد القضاة أيضًا فى أثناء زيارته لمصر، فيتحدث عن يحيى أفندى قاضى مصر أثناء تواجده، وأنه عُين لقضاء دمشق، ثم انتقل إلى قضاء القاهرة بمساعدة الوزير الأكبر شغل زاده، وبرغم أنه اشتهر أثناء توليه القضاء فى دمشق بالعفة والعدالة فإنه عندما أصبح قاضيًا للقاهرة لم يُبْدِ عدلاً، ولم يتعفف عن رشوة، وركبه العزور، واتخذ لنفسه عشرة من جنود القلعة يرتدون لباسًا من اللباد يتقدمون موكبه، وبرغم جشعه الشديد وقبوله لأنواع الرشوة فإن الناس يؤكدون أنه برغم كل هذه السوءات أفضل مِنْ سَلَفِه[١]. هذا وقد أكد المؤرخون المعاصرون كالجبرتى وأحمد كتخذا على فساد معظم رجال القضاء فى مصر، بدءًا من قاضى العسكر نفسه إلى قضاة النواحى، حيث أصبحوا يشترون مناصبهم من أصحاب الحق فى تعيينهم، ولذا عملوا على استغلال هذه المناصب فى جمع الأموال لتعويض ما دفعوه ثمنًا لهذه المناصب[٢].

ولاة مصر:

عرض الكاتب فى عجالة لكل العصور التاريخية فى مصر، وأشهر ولاتها وسلاطينها منذ فتحها عمرو بن العاص حتى الغزو العثمانى وانتصار السلطان سليم. ثم تحَّدث بالتفصيل عن ولاة آل عثمان، وأولهم خاير بك، وهو يعرض لكل منهم بالوصف والنقد، فيتحدث عن نشأتهم، وأصولهم، وتربيتهم، وأثر هذه النشأة فى أخلاق كل منهم وتصرفاته، ونرى أنه صاحب معرفة عميقه برجالات الدولة، واطلاع على مجريات الأمور، وثقافة مكنته من أن يُقَيِّم هؤلاء الرجال فى وضوح وإيجاز شديدين، فيسجل أهم ميزة لكل واحد منهم، ونبذة عن أخلاقه، والفترة التى قضاها فى الولاية.

فهو يصف قاسم باشا بأنه كان ممتازَ الخُلُق، حصيفَ الرأى، ذا هيبة ووقار، وكان رحيم القلب... ويصف أحمد باشا الملقب بالخائن بأنه كان ألبانى الأصل، شديد العند والغباء، وأدى به ذلك إلى أن تمرَّد عليه الجند وقتلوه[٣].

---

(١) Tietze, op. cit.., p. 60.

(٢) عبد الرحمن الجبرتي ـ عجائب الآثار في التراجم والأخبار جـ٢ ص ١٢٧، حوادث سنة ١٢٠٠هـ ـ ١٧٨٥م.

ـ أحمد كتخذا عزبان (مخطوط) ـ الدرة المصانة ـ تحقيق د. انيال كرسيلوس، د. عبد الوهاب بكر ص ٢٠٥، ٢٠٦ القاهرة ١٩٩٢.

(٣) Ibid., p.70.

تاريخ العينى ـ المرجع السابق. ص ١٠٣.

ونراه يهتم بالإشارة إلى أن الوزير سليمان باشا كان أول من ولى مصر من خصيان القصر، ثم الوزير خسرو باشا الأخ الأكبر للالا مصطفى باشا فاتح قبرص وشيروان، وبطل معارك البوسنة، وقد أرسى قواعد الأمن بمصر حتى ترك الناس منازلهم مفتوحة، ولم يجرؤ لص على أن يمد يده للسرقة[١].

وعند حديثه عن على بك الملقب بالتخين، والذى دامت ولايته أربع سنوات وسبعة أشهر، عُين بعدها وزيرًا، وجمع خلال فترة ولايته على مصر سبعين ألفاً من القطع الذهبية، ويعلق على ذلك بأن هذا الرجل يُعَدُّ عادلاً قنوعاً إذا ما قُورن بما يفعله الولاة الآن ـ أى بعد ثلاثين عاماً تقريباً ـ عند زيارته الثانية لمصر ـ حيث لا يقنع من يتولى لمدة ستة أشهر بأقل من مائة ألف قطعة ذهبية، ثم تراه يشكو من فقر ولاية مصر[٢].

ويمتدح الوالى محمد باشا الألبانى الأصل، ويصفه بغزارة العلم، ووفرة الكرم والعدل.. كما يثنى على عدالة الوالى على باشا (القرافى) وعفته وعدله، والذى توفى بعد عام ونصف من الحكم، ولم يوجد بخزانته سوى أربع وستين قطعة من الذهب.

وفى حديثه عن الوالى محمود باشا، الذى كان واليًا على اليمن ثم عُزل، نجده يدمغه فى مكر بأن الرشوة العلنية قد شاعت علانية فى عصر السلطان سليمان على يديه، فقد كان يجمع الرُّشَا من الناس ليدفعها إلى السلطان، وانتهى الأمر بمقتله[٣].

ولايفوته أن يبلور التوجه العام، ورأى كبار رجال الدولة فى رفضهم واستنكارهم لتولى أحد العرب للوظائف المهمة، وذلك عند حديثه عن الوالى محمد باشا الشريف، الذى ولى على مصر سنة ١٠٠٤هـ ١٥٩٥م لمدة عامين وشهرين ويقول: «إنه عُين بإلحاح من الوزير الأعظم سنان باشا، برغم أنه كان غريبًا على الدولة، فقد منح ولاية العرب برغم معارضة غالبية كبار رجال الدولة والنبلاء».. ثم يورد قصيدة لشاعر يُدعى مولانا فهمى، يوضح فيها مدى خطورة توليه مثل هذا العربى الغريب لولاية مصر، ويتهم سنان باشا بعدائه للعقيدة والوطن.. ويضيف: أن هذا الشريف سرعان ما يعلن

(١) المرجع نفسه Tietze, op. cit. p. 71.

(٢) Ibid., p. 71.
المرجع نفسه ص ١١١

(٣) Ibid., p. 72.
المرجع نفسه ص ١١٥ (وهو صاحب جامع المحمودية القائم بميدان القلعة).

أنه سليل النبوة، فيلتف حوله الناس، ويستقل بإمارة مصر، وفى هذا إيذان نهاية حكم بنى عثمان ونهاية دولتهم. ثم يؤكد أنه لايحق لهذا الرجل أن يكون واليًا، فهو قليل الخبرة، ولم يكن إنكشاريًا. ويعلق مصطفى بأن مولانا فهمى قد صاغ مخاوف الناس وخيالاتهم[١].

وهو بهذا يكشف عن مدى تعصبه للجنس التركى، وعنصريته، ونظرة التعالى التى كانت تسود فى تلك الآونة.

ثم يتحدث عن والى مصر عند مجيئه فى رحلته الثانية، وهو حسن باشا السكير، فيذكر أنه أمير موائد الخمر، يعشق الترف والغلمان المرد، ولكنه جواد كريم، وهو متقدم السن، ذوى خبرة وحنكة فى الحكم. وقد سقط ذكر هذا الوالى من تاريخ العين وقد كان مصطفى على مقيماً فى مصر أثناء توليته بعد عزل خضر باشا وتعرف به عن قرب[٢].

رؤيا مصطفى على الاقتصادية:

يختتم صاحبنا كتابه مرتدياً مسوح الحكماء، متخذًا من أقوال الإمام على رضى الله عنه منطلقاً لصياغة آرائه ومجمل رؤيته الاقتصادية وانتقاداته وملاحظاته، وهى فى مجموعها يكاد أن تكون شكوى مغلفة، أو رسالة مفتوحة موجهة إلى السلطان الأعظم.

ونراه يحمل هدفه فى قوله: «إن العائد الذى يُنْتَظَر فى ولاية غنية مثل مصر هو إن يعود غناها على الخزانة العامة للدولة، وأن تفوح شذى ثمارها لإثراء خزانة السلطان». ثم يعلق على ذلك بأن المتحصلات من ولاية غنية مثل مصر آخِذَة فى التناقص والتقلص عاماً بعد عام، وذلك أن الولاة الجشعين يلتهمون متحصلاتها، ويقتطعون لأنفسهم ما يسمونه مال القهوة، كما يقتطع الكُشَّاف لأنفسهم ما يسمونه مال الطلبة، وما يصل إلى الخزانة السلطانية لايعدو ستمائة ألف قطعة ذهبية سنويًا، برغم أن ما يُفرض على الفلاحين من ضرائب يتزايد عاماً بعد عام، حتى عجزت الرعية عن تحمل هذا العبء المتزايد، مما دفعهم لهجر قراهم، وترك أراضيهم وحقولهم[٣].

---

(١) Tietze, op. cit. P. 75 - 74.
عَمَّرَ هذا الوالي مقام الإمام الحسين، وأقام محراباً بالجامع الأزهر ورمم الجامع وأصلحه، وأوقف شربة العدس علي المجاورين به. المرجع نفسه ص ١٢٦.

(٢) Ibid., p. 77.
لم يرد ذكر حسن باشا السكير عند أحمد شلبي وإنما أورد بعد خضر باشا علي باشا السلحدار، الذي قدم إلي مصر في صفر سنة ١٠١٠هـ (المرجع نفسه ص ١٢٦ ـ ١٢٧).

(٣) Ibid., p. 80.

ويضيف قائلا: إنه حينما تصل الأوامر السلطانية بزيادة الأموال فهم لايرسلون شيئاً مما اقتطعوه لأنفسهم، ولكنهم يجمعون العوائد المستوجبه للعام التالى، مما يضطر الفلاحين إلى بيع أدوات الزراعة نفسها تحت وطأة وسائل القمع والتعذيب من العسكر، وهذا يؤدى إلى خراب ريف مصر وقراها.

ثم يعود ليقرر ويؤكد على أن «جباية الضريبة مقدمًا سوف تؤدى بمرور الزمن وتوالى الولاة إلى أن تصبح قرى مصر قفرًا خالية من السكان، ولن يجد الحكام ما يسددون به رواتب الجند، ناهيك عن الأموال المستوجبة لخزانة السلطان، مما يجعل من المستحيل حماية الولاية والدفاع عنها، ويجعلها عرضة للوقوع فى يد الأعداء المتربصين بها[١].

ثم يأتى بعد ذلك على تعديد نواحى الإسراف والتبذير التى رصدها فى مصر، فيذكر «أن الأغوات من الأحباش والنوبيين بأعدادهم الكبيرة، يحصلون على مبالغ طائلة، تتراوح ما بين عشر واثنى عشر قطعة ذهبية فى اليوم، بالإضافة إلى عدد لا يحصى من النسوة اللاتى يحصلن على رواتب تعرف بالعلوفة، وكل ما يفعلنه هو القيام على خدمة زوجات كبار رجال الولاية». ونراه هنا وكأنه يدعو السلطان إلى الأمر بتخفيض نفقات الدولة وإحكام الرقابة على هذه الفئات[٢].

وهو يعزو ما أصاب مصر من تدهور اقتصادى إلى تولى الخصيان السود لكثير من الأمور، وتزايد عددهم، وحصولهم على الرواتب السنية والعلوفات، برغم أن عددهم فى بداية الحكم العثمانى لم يزد على عشرين أو ثلاثين، ثم صار يستعصى على الحصر، وخُلعت عليهم الألقاب، وغمرهم الولاة بكرمهم، وهم يتولون الدشيشة، ويبددون ريعها الوفير. ويعضد ما ذهب إليه بما تنبأ به الإمام على رضى الله عنه بأنه إذا ساد الخصيان السود مصر فهذا طريق خرابها، حيث يقول: «إذا ركبت الخنافس على الطنافس فأبشروا بخراب مصر»[٣].

* * *

(١) Tietze, op. cit ., p. 81.

(٢) Ibid., p. 81.

(٣) Ibid., p. 83 - 82.

خاتمة

بعد هذا الاستعراض لما كتبه مصطفى على نرى أنه لم يكن مجرد رحالة يسجل ما وقعت عليه عيناه من ظواهر، وشد انتباهه من العادات والتقاليد الاجتماعية، مما رآه غريبًا أو غير متعوَّد، ولكنه أقام من نفسه شاهدًا على عصره، مشاركاً فى تقييمه ونقده، راصدًا لحركة المجتمع المصرى على مدى قرابةَ نصف قرن من الزمان من تغيرات أصابته ما بين زيارته الأولى والثانية.

ولم يكتفِ برصد تلك العادات والتقاليد والأحوال السياسية والاقتصادية، ولكنه يُقَيِّمُهَا ويبحث عن مسبباتها وينقدها، وقد نراه قاسيًا فى نقده لبعض الظواهر الاجتماعية، متحاملا على المصريين والعرب وغيرهم من الشعوب التى دخلت تحت السيطرة العثمانية، وهى نغمة عنصرية استعمارية متعالية سادت زمنًا طويلاً.

أمَّا نقده السياسى لأحوال الولاة والحكام والملتزمين وقادة الجيش وكبار موظفى الدولة، فهو برغم قسوته فقد أصاب كبدَ الحقيقة، وكشف عن حنكة وخبرة سياسية عالية، وإذا كنا نلحظ أن ما كتبه كان مغلفًا بحرصه على مصالح الباب العالى، فى محاولة لإثبات شدة ولائه وإخلاصه للسلطان، فإننا لا نستطيع أن نتجاهل أنه كان من الساعين غير مرة للحصول على إحدى الوظائف السنية فى ولاية مصر، وطاش مسعاه، مما زاد من حنقه وحرصه على كشف نقائض موظفى الديوان فى مصر، من رشوة، وحمق، وظلم للفلاحين، وسرقة لأموال السلطان، ولكنه فى النهايه يقدّم لنا صورة مفصلة بدقائقها وأسرارها، حيث يضع يده على نبض الحياة فى مصر مهما كانت دوافعه.

* * *